الضوابط الشرعية في التحالف مع غـــــير المسلمين دراسة في السيرة النبوية الشريفة

د: مصطفى المختار محمد فرنانه كلية القانون والعلوم السياسية

mfrnana@yahoo.com (جامعة الزنتان / ليبـــيا)

ملخص البحث

يدور موضوع هذه الورقة حول التحالفات السياسية والاقتصادية بين المسلمين وغيرهم من حيث الجواز وعدمه وضوابطه، دراسة نابعة من وقائع وأحداث وردت في السيرة النبوية، فالدولة الإسلامية منذ نشأتها كانت قريبة جداً من المشركين واليهود والنصارى، والنبي عقد معهم معاهدات ومصالحات وتحالفات، كان فيها الخير للمسلمين في العاجل والآجل، يهدف هذا البحث إلى تحليل ودراسة تلك التحالفات للخروج بضوابط تنظم المعاملة مع غير المسلمين وفق ما ورد في السيرة النبوية ليكون موافقاً للشريعة الإسلامية غير مناقض لها، والسبب الداعي لكتابة هذه الورقة، هو التساؤلات التي تواجه الباحث حول مشروعية التحالف مع غير المسلمين حيث ورد في الشريعة ما يفيد التحذير منهم وموالاتهم وغير ذلك من أوجه التعامل مع غير المسلمين، وهنا تكمن مشكلة البحث وذلك بالنظر في سيرة النبي وكيفية تعامله مع غير المسلمين من خلال دراسة وقائع مختلفة في السيرة النبوية كصلح الحديبية مع المشركين، والمعاهدة مع يهود المدينة، والتحالف مع قبيلة خزاعة وهي يومئذ على غير الإسلام، بغية الخروج بضوابط تنظم التحالف مع غير المسلمين وفق ما جاء في الشريعة الإسلامية، منهجية البحث سلك الباحث في هذه الورقة المنهج الوصفي التحليلي، لمناسبته لهذه الدراسة، حيث يقوم على دراسة الظاهرة والمشكلة العلمية من خلال القيام بالوصف بطريقة علمية، ومن ثم الوصول إلى تفسيرات منطقية لها دلائل وبراهين تمنح الباحث القدرة على وضع الحلول المناسبة للمشكلة، من نتائج البحث أن التحالف مع غير المسلمين جائز وواقع في الشريعة الإسلامية وفق ضوابط وشروط معينة.

الكلمات المفتاحية: السيرة النبوية، الضابط، التحالف، المعاهدة، الصلح.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على المبعوث رحمة للعالمين، ومشكاة السالكين، سيد ولد آدم أجمعين، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد؛

فمنذ أن بزغ فجر الإسلام وأشرق نوره ليضيء البشرية جمعاء، اجتهد النبي ﷺ في دعوة الناس لهذه الرسالة السامية الخالدة التي بها السعادة في الدارين، ومن سنن الله في خلقه ومشيئته التي خضع لها كل خلقه أن دخل في الإسلام من الناس خيارهم وأفضلهم، وتنكب غيرهم العداء ووقف موقف المحارب المعادي للفطرة السليمة، اتباعاً لأهواء ومآرب شخصية دنيوية، وواجه النبيﷺ ذلك الموقف الشرس من قومه قبل غيرهم باللين والصفح والصبر، فقابل الإساءة بالإحسان والضر بالنفع، رجاء أن يشرح الله صدورهم للإسلام فتعتق رقابهم من النار، وكانت هذه سيرة النبيﷺ مع من خالفه من قومه ومن غيرهم فهو رسول الله للناس كافة، فلم يفتأ ﷺ يأخذ الناس باللين ويوادعهم ويصالحهم ويعاهدهم، كي يفسح لهم المجال ويترك لهم الوقت كي يختاروا الطريق القويم، فمع كل النفور والشدة في مواجهة النبي نجده يأخذ المخالفين بطريق الترغيب وإعطاء الفرصة تلو الفرصة، حتى إنه في الحديث عندما خاطبه جبريل عليه السلام

فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا"[1]هكذا كانت دعوة النبي لقومه الصبر على الأذى والأخذ باللين، ومن تلك الوسائل التي اتخذها ﷺ التصالح مع قومه والمعاهدة مع يهود المدينة، وفي ذلك فترة كافية للتفكير واختيار الطريق الصحيح، ونرى بوضوح مآلات تلك الطريقة، فبعد فترة ليست بالطويلة دخلت قريش في دين الله أفواجاً، فأعتقت رقابها من النار وكانت قوة ومنعة للإسلام، أما يهود المدينة فيكفي إقامة للحجة عليهم فطالما عاهدهم وهادنهم؛ ولكنهم اختاروا المكيدة والغدر فنصره الله عليهم، والباحث في هذه الورقة تناول دراسة جانب مهم من المعاملة مع غير المسلمين وهي مسألة التحالف

والتصالح والتعاهد معهم، وتركزت الدراسة على استخراج الضوابط والشروط التي تنظم المعاملة مع غير المسلمين، وذلك بالنظر في مصالحة النبي لقريش في الحديبية، وكذلك تحالفه مع قبيلة خزاعة، وكتابته معاهدة المدينة مع اليهود وغيرهم من سكانها، فالعالم الآن أصبح في تقارب كبير بين جميع بلدانه وأجناسه، فلا يخلو بلد مسلم من سفارات وبعثات من جميع دول العالم المسلم وغير المسلم، والحال هكذا فالأمر يتطلب النظر في معاملتهم وفق ما تبيحه الشريعة الإسلامية.

مشكلة البحث

إذا نظرنا في نصوص الشريعة الإسلامية وجدنا تحذيراً شديداً في التعامل مع غير المسلمين، لدرجة أن صاحب المعاملة يكون منهم حكمه حكمهم، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[2] ،وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3]، فهذه الأيات الكريمة جاءت في النهي عن موالاتهم على المؤمنين، وما ورد من معاملة النبي معهم في صلح الحديبية وغيره مما هو ثابت في سيرته ﷺ؛ وعليه فالتعامل مع غير المسلمين ليس على إطلاقه نهياً أو إباحة، ونرى في هذا العصر هناك بعض التعاون بين الدول الإسلامية وغير الإسلامية في شتى مجالات الحياة، ومن هنا أراد الباحث القيام بدراسة تبين حكم الشريعة في تلك المعاملة مع غير المسلمين، تمثل في دراسة وقائع ثابتة في التعامل معهم ولكن بشروط وضوابط تنظم ذلك.

أهداف البحث

- تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن ضوابط وشروط جواز التحالف مع غير المسلمين.

منهجية البحث

سلك الباحث في هذه الورقة المنهج الوصفي التحليلي، لمناسبته لهذه الدراسة، حيث يقوم على دراسة الظاهرة والمشكلة العلمية من خلال القيام بالوصف بطريقة علمية، ومن ثم الوصول إلى تفسيرات منطقية لها دلائل وبراهين تمنح الباحث القدرة على وضع الحلول المناسبة للمشكلة.

هيكلية البحث

قسم الباحث هذه الورقة إلى مقدمة ذكر فيها أهمية الموضوع وبيان مشكلته وأهدافه، ومبحثين الأول في بيان مصطلحات البحث، والثاني في ذكر أهم الضوابط لجواز المعاملة مع غير المسلمين، وخاتمة بأهم نتائج البحث.

المبحث الأول: تمهيد في تحرير محل النزاع وتحديد المصطلحات:

الحديث حول هذه المسألة له عدة جوانب وأبعاد فالتحالف مع غير المسلمين في بعض أحواله حكم عليه أئمة الإسلام بالحرمة والمنع، ويجعلون فيهم قول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[4] والولاية هنا ولاية المودة والنصرة[5]، قال الطبري في تفسير هذه الآية: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله وغيرهم، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرا وحليفا ووليا من دون الله ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان[6].

فغرض الباحث وقصده من هذه الدراسة هو بيان شروط وضوابط التعامل مع غير المسلمين، استنباطاً ودراسة في وقائع محددة تمثلت في صلح الحديبية، وحلف خزاعة، ومعاهدة يهود المدينة، وكل تلك الوقائع كان التحالف فيها مع الكفار ضد عدو من الكفار أيضاً، وحاجة المسلمين لذلك كانت قائمة والضرورة ملحة، والمصلحة تحققت في عاجله وآجله بتوفيق الله سبحانه وتعالى، ولهذا أراد الباحث جمع ما يمكن أن يستفاد منه لنفع المسلمين اليوم، ولا يخفى على أحد ضعفنا اليوم في الأمور المادية وحاجتنا لهم، فرأى الباحث أن الضرورة في هذا العصر قد تجبر وتضطر الدولة المسلمة للتعامل مع الدول الكافرة، في شتى المجالات، اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، فالعالم في تقدم رهيب والعالم الإسلامي في الغالب متأخر عن هذا التقدم كثيراً.

- **الضوابط**

أعني بالضوابط تلك الشروط والبنود التي تجعل المعاهدات والمصالحات مع غير المسمين ذات جدوى ومصلحة راجحة، فالباحث قام بدراسة تلك الوقائع التي حدثت بين النبي ﷺ ومن كان في ذلك الوقت من غير المسلمين متمثلاً في: مشركي قريش الذين أظهروا العداء والمخالفة لهذا الدين منذ بزوغ فجره وهم في حرب ظاهرة معه، وأيضاً يهود المدينة على ما بينهم من خلاف وشقاق، فقد اتحدوا في الكيد للإسلام منذ ظهور البشارة به، وازداد عداؤهم عندما جاورهم في المدينة، والنصارى وغيرهم فيما بعد، فركز الباحث في تناوله لتلك المعاهدات والتحالفات والمصالحات على ما يفيد في هذا العصر في التعامل مع غير المسلمين، وأيضاً ما يقيد المعاملة معهم بحسب المصلحة في العاجل والآجل.

- **السيرة النبوية**

يعني الباحث بعض الوقائع التي ذكرتها كتب السير والتاريخ؛ محصورة في صلح الحديبية والتحالف مع قبيلة خزاعة، ومعاهدة النبيﷺ مع يهود المدينة.

- **التحالف أو التصالح أو المعاهدة**

جرى ذكر هذه الألفاظ في طيات البحث وذلك اتباعاً لنوع المعاملة التي جرت بين المسلمين وغيرهم في الوقائع الثلاث التي تعرض لها الباحث بالدراسة في بحثه؛ فالتصالح لما كان بين النبيﷺ والمشركين في الحديبية، والتحالف لما جرى مع قبيلة خزاعة، والمعاهدة إشارة لما كان من معاهدة المدينة بين سكان المدينة من مسلمين ويهود، ولا يقصد الباحث بالتحالف التحالف مع الكفار ضد المسلمين مطلقاً، سواء المسلم العادل أو الجائر أو أهل البغي من المسلمين[7]، وإنما قصد حالة خاصة كما حدث بين النبيﷺ ومشركي قريش في صلح الحديبية أو تجديده الحلف القديم بين قبيلة خزاعة ومن في عهدها وعبد المطلب جد النبي ﷺ، ويومئذ قبيلة خزاعة لم تدخل في الإسلام، مع قيام الضرورة لذلك، فقد استعان النبي ﷺ بصفوان بن أمية في غزوة حنين استعار منه مائة درع وما يصلحها[8]، وقد رد من جاءه في غزوة بدر وقال ﷺ: «فارجع، فلن أستعين بمشرك»[9]، ثم عرض نفسه مرة أخرى فقبله بعد أن آمن، وعلى كل حال فاستعانة النبي ﷺ بغير

المسلمين ثابتة في السيرة النبوية الشريفة، والأمر ليس على إطلاقه، بل يحتاج لضبط وتقييد وفق ما جاء في معاملة النبيﷺ معهم، وذكر أهل العلم في الجمع بين استعانته ﷺ في بعض أحواله بالمشركين، ومنعه من جاءه في غزوة بدر لكونه مشركاً، بأن الجواز مع الحاجة والضرورة لذلك والمنع مع عدم حاجته لهم[10]، فيكون الجواز مقيداً بشروط وضوابط، وسنتحدث في هذه الورقة عن بعض ما يصلح لتقييد التعامل مع غير المسلمين.

إذن فالمقصود من التعامل معهم هو إعطاؤهم فرصة وإمدادهم مدة ليأمن المسلمون شرهم، وتكون فترة لدعوتهم بالحسنى، مع الحذر الشديد من موالاتهم والرضى بكفرهم فعلى هذا تحمل النصوص المانعة، فعلى كل حال المعاملة معهم وفق المصلحة والضرورة.

المبحث الثاني: الضواط والشروط لجواز التحالف مع غير المسلمين

1- **أن يكون حلفاً عادلاً المصلحة فيه ظاهرة:** يجوز التحالف مع غير المسلمين إذا كانت المصلحة فيه ظاهرة ومبني على أسس سليمة، والدارس في كتب التاريخ والسير يجد أن النبي مدح الحلف الذي حضره في دار ابن جدعان[11] وأثنى عليه، وقرر أنه لو دعي لمثله في الإسلام لأجاب، وهذا يبن لنا أن العدل والحق ونصرة المظلوم أمور معتبرة في الإسلام يدعو لها ويحض عليها ويوافق من جاء بها، فالنبي لم يركز على أطراف ذلك الحلف بقدر ما ركز على الحق والعدل ونفي الظلم، وهذا من المبدئ التي تقرها الشريعة الإسلامية.

2- **التحالف مع الدول المسالمة:**

إن التحالف والتعاون مع الدول أو الجماعات غير المحاربة أو المعتدية على المسلمين جائز في الشريعة الإسلامية، يدل على ذلك بعض الوقائع والأحداث في سيرة النبي وأصحابه، فمثلاً التحالف الذي وقع بين المسلمين وقبيلة خزاعة وهي في ذلك الوقت لا زالت على شركها، إلا أن قبيلة خزاعة كان تربطها مع النبي علاقة تحالف قديم فكانت في نصح للنبي حتى قبل إسلامها، وكان هذا التحالف عقب صلح الحديبية، ولا يخفى فوائد مثل هذا النوع من التحالفات، ففيه تقوية لشوكة المسلمين وشق لصف غيرهم إذا ما كان هناك حرب أو اعتداء، وكثرت الحلفاء والداعمين تقلل العدو وتحصره، وكل حلفاء النبي لم يرتدوا عنه بل دخلوا في دين الله ووقائع

التاريخ شاهدة على ذلك، ومما يستدل به هنا ما وقع من استعانة النبي بصفوان بن أمية وهو يومئذ مشرك[12]، خرج مع النبي لغزوة حنين واستعار منه النبي مائة درع وقسم له من الغنائم مائة من الإبل، وكانت زوجته قد أسلمت قبله في فتح مكة فلم يفرق بينهما ﷺ، ثم بعد ذلك أسلم وحسن إسلامه فالنبي ما أنزل عليه هذا الدين لقتل الناس وإدخالهم النار؛ وإنما بعث رحمة وهداية للناس واللين في تعامل النبي معهم كان له أبلغ الأثر في هداية الناس، فحسن التعامل مع غير المسلمين سبب في هدايتهم، واللين ما دخل في شيء إلا زانه.

3- **التحالف بقصد المواطنة والتعايش السلمي وحفظ حقوق الجوار**: وهذا يظهر جلياً في المعاهدة[13] التي عقدها مع اليهود في المدينة، وكتب بينهم كتاباً يضمن الحقوق والواجبات التي تحفظ الجوار، فأقرت اليهود على دينهم وأموالهم، وبينت الحقوق والواجبات التي تثبت للمواطن، من دفاع عن المدينة من العدو الخارجي وعدم العبث فيها من الداخل، فتعد تلك الوثيقة سابقة لأوانها فقد حفظت الحريات الدينية والثقافية وضمنت استمرار الحياة في مجتمع متعدد الأعراق والديانات، مادام الجميع محافظاً على تلك البنود، يؤدي واجباته وله حقوقه في ظل العدل والمساواة والحرية، فقد سبق الإسلام إلى تقرير مبادئ المواطنة فقد كفل لساكني المدينة حرية المعتقد وحرية الملكية وأسست مبدأ الأخوة والتعاون، فما جاء في تلك الوثيقة قبل 1400 سنة الآن المجتمع الدولي يحاول أن يؤسس لمثل تلك البنود التي وردت في تلك الصحيفة؛ محاولة للتأكيد على بعض الحريات والحقوق؛ لكن الإسلام سبق إليها قبل أربعة عشر قرناً، وعلى كل حال تعد أول وثيقة تهتم بحقوق الإنسان وهي تحتاج لمزيد من الدراسة والتأمل إبرازاً لسبق الإسلام لكل ما فيه الخير للبشرية جمعاء، واستفادة أيضاً مما جاء فيها.

4- **التصالح لغرض الهدنة والتفرغ للدعوة**: أن يكون في التصالح مع غير المسلمين هدنة تقلل العدو وتمنح المسلمين الوقت للتعامل مع عدو آخر يتربص بهم، يعد هذا من الشروط المهمة للتصالح مع غير المسلمين فلا بد لكل عمل من مقصد مشروع فيه النفع للمسلمين، وكذلك يعد فرصة للإعداد المادي والمعنوي لمقابلة خطر آخر، وهذا كان ظاهراً في واقعة الحديبية فقد أتاح الصلحُ للمسلمين التفرغ ليهود خيبر وتيماء وفَدَك القاطنين في شمال المدينة، فكان فتح خيبر عقب صلح الحديبية[14] . وهو الطريق الطبيعي لانطلاق الدعوة إلى آفاق العالَم، والاتصال بالعالم

الخارجي، وفيه ترتيب بين الأولويات فخطر اليهود المتربصين بالمسلمين أولى في تلك المرحلة؛ وذلك نظراً لقربهم من المدينة فخطرهم أكبر فيمكن أن يستخدمهم العدو كما في غزوة أحد، ليكونوا شوكة في خاصرة المسلمين ولهم في ذلك سوابق، مع معاهدة النبي ﷺ لهم إلا أن الخيانة كانت سجيتهم، فلذلك كانت الملحة الملحة والمطلب المهم تأمين عاصمة المسلمين ومقر إقامة النبي ﷺ، وكان لهم ذلك بهذا الصلح الذي به أمن المسلمون من عدو كبير وهو كفار قريش، فبذلك الصلح أمّن النبيﷺ المدينة وحدودها من اليهود وخطرهم، وأيضاً يسر ومهد هذا الصلح الانطلاق للعالم الخارجي لدعوتهم لهذا الدين الخالد الذي به يتحقق الخير لأمم الأرض قاطبة، فعقب ذلك الصلح بعث النبي ﷺ رسله للروم والفرس وغيرهم من الأمم الأخرى.[15]

فقد كانت فترة الأمن والصلح بيئة مناسبة للدعوة، وفترة كافية لدخول جموع غفيرة في دين الله أكثر من ذي قبل، فمن كان متردداً شاكاً في الإسلام غير رأيه، وذلك بعد ما شاهد قريش بكل قوتها وتجبرها تفاوض الرسول الكريم ﷺ زال شكه بعد هذه الواقعة التي أدارها النبيﷺ بحكمة بالغة، ترتبت عليها نتائج ملموسة في صالح المسلمين؛ فمن بنودها الهامة السماح لمن أراد الدخول في الإسلام من القبائل الأخرى مما شجع على الدخول في الإسلام وأزال عنهم الحرج، إذن فقد كسب النبي كثيراً من هذا الصلح فقد أمن المدينة من عدو قريب، وأرسل رسله للعالم أجمع مما يقوي هذه الرسالة، ويبرهن للناس كافة عالمية هذه الدعوة، وفتح المجال لقبائل العرب للدخول في الإسلام، ومن نظر في حال المسلمين وعددهم قبل وبعد الصلح يرى الفرق جليا وواضحاً.

5- إعداد العدة وإظهار القوة:

إظهار القوة وعزة النفس والثبات على المبدأ هذا من الأمور الهامة التي تفيد في إجبار الطرف الآخر بقبول الشروط فيما بعد، فعندما تكون القوى متقاربة يمكن للمحاور أن يفرض ويملي ويكسب ما يريد، يستفاد هذا من الحوار الذي دار بين النبيﷺ وبديل بن ورقاء الخزاعي، عندما جاء ناصحاً للنبيﷺ مبيناً له حال قريش، وأنهم يريدون قتال النبي ﷺ، فقد عرض النبيﷺ على قريش الهدنة التي يأمن فيها الناس ويستريحوا من الحروب التي أنهكتهم، وإن أبوا إلا الحرب، فقد قال لهم: "إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر: فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس

فعلوا، وإلا فقد جموا[16]، وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي[17]، ولينفذن الله أمره "[18] ، يتضح لنا من خلال هذا الرد من النبيﷺ على ما كان يدبره المشركون، الحكمة في معالجة الأمر، وتقديم أفضل العروض وتأييده بإظهار الصلابة والقوة إذا ما أراد الخصم الغدر وأخذ طريق القتال، فعرض النبيﷺ كان أقرب شيء للواقع فالحرب انهكت الطرفين وذهبت بكثير من رجالهم؛ وهنا يأتي دور الحكمة في إدارة المفاوضات، فتذكيرهم بما لاقوه في الغزوات السابقة والأذى الذي حصل لهم، كفيل بأن يجعلهم يتناسوا ويتغافلوا عن الأنفة والعلو الذي يعاملون به المسلمين، وأيضاً يمهد لقبول الشروط الإسلامية للصلح فيما بعد.

الصلح يسبقه إعداد جيد لكي يرضى العدو المقاتل بالصلح ينبغي أن يعايش قوة وصلابة عند اللقاء لكي يرى له في الصلح راحة ومصلحة فيدفعه للرضى به، فلو لم يروا من النبيﷺ وأصحابه صلابة وقوة فيما قبل عند القتال والغزو، لم يركنوا للصلح؛ والمشاهد السابقة للحديبية كانت فيها صلابة وقوة المسلمين ظاهرة والظفر لهم غالباً، وهذا ما زرع الرهبة والخشية من مقابلة المسلمين مرة أخرى، ولهذا أذعنوا لما أتاهم به من الصلح والهدنة لأخذ النفَس لكل من الطرفين، مع اختيار الشروط المناسبة التي تبين أثرها الإيجابي مستقبلاً، فصاحب الحق والعدل منصور بتأييد الله له، والنصر يأتي سريعاً قوياً مع حسن التدبير والتخطيط، فما هي إلا مسألة وقت حتى جاء الفتح الكبير، فتح مكة ودخل الناس في دين الله أفواجاً، حاولت قريش بكل ما أوتيت ثني النبيﷺ عن دخول البيت ولكن قوة وصلابة النبي وما رأوه من قوة وإصرار مهد لقبولهم الصلح.

مما يستفاد من واقعة الحديبية أن للإعداد دوراً كبيراً في تسيير الأمور، فالنبيﷺ خرج مسالماً لأداء شعيرة دينية معروفة عند الناس في الجاهلية وفي الإسلام، وهذا الأمر كان واضحاً حيث ساق الهدي وهو محرم مما لا يدع مجالاً للشك في صدق نواياه، ومع ذلك لم يأمن مكر وغدر قريش فأعد العدة واستعد للقاء معهم لو حصل، ولهذا الصدق والوضوح أثر بالغ في شق صف قريش وإلجائهم لقبول الصلح، فقد ورى ابن كثير أن الحُليس عندما رأى تعنت المشركين وعدم سماحهم للنبيﷺ وأصحابه بدخول البيت لأداء العمرة غضب وقال لهم: "يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاءه معظما له؟! والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. قالوا: مه،

كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[20]"، وهذا يعد من حسن تدبير وتخطيط القائد العالم بأحوال الناس، فالنبيﷺ اغتنم خصلة طيبة وجدها في الحليس وإن كان مشركاً في صف المشركين؛ إلا أن النبيﷺ بحكمته استطاع أن يستميله في صفه ليكون مدافعاً عنه أمام من خرج مبعوثاً منهم، فنستخلص من هذه الواقعة شيئاً مهماً وهو أن غير المسلمين ليسوا على رأي واحد فكل له أفكاره وقناعاته، وينبغي دراستهم جيداً لنتمكن من أخذ الجانب الإيجابي وتنميته والاستفادة منه، وفي العصر الحديث شواهد عديدة لمن أدار أزمته أو مشكلته بشكل جيد على نحو ما سبق في صلح الحديبية، فنرى أحياناً وقوف بعض الدول الكافرة في صف دولة مسلمة في مجلس الأمن وغيره، بسبب مصلحة أو قناعة بعدالة قضية، ذكرت لنا صفحات التاريخ المعاصر الأحداث التي سبقت استقلال ليبيا وخروجها من ربقة الاحتلال الغاشم، فقد رفعت الدول الاستعمارية آنذاك مشروع "**بيفن**[21] **سفورزا**[22] الذي كانت ترعاه فرنسا وبريطانيا وإيطاليا العدو اللدود والمحتل البغيض لليبيين، وكان لتمرير القرار ينبغي تصويت ثلثي أعضاء المجلس، وكانت ليبيا في تلك اللحظة الفاصلة في تاريخها تحتاج لصوت واحد كي يسقط المشروع الاستعماري بالوصاية وتقسيم ليبيا بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، وهنا يأتي دور الحكمة في الاختيار والمثابرة في عرض القضية، فأقنع الدكتور علي العنيزي أحد أعضاء الوفد الليبي ممثل دول هايتي "**إميل سان لو**" على الوقوف في صف الدولة الليبية لتأخذ استقلالها، وكان ما أراد فقد صوت "**إميل سان لو**" مندوب دولة هايتي ضد ذلك القرار، وساهم هذا الأمر في التمهيد للاستقلال الكامل لدولة ليبيا[23]، وهذا على سبيل المثال.

6- **طول النفَس والصبر عند عقد المصالحة والتمسك بالثوابت:** ويكون بحسن إدارة الحوار والخروج بشروط في صالح المسلمين، ولو في مستقبل الأيام فقد تعطي في الحاضر للخصم ما يشتت انتباهه على الشروط الأخرى؛ فكان كفار قريش يظنون أنهم فازوا وانتصروا بصدهم النبيﷺ ذلك العام؛ وهو في الحقيقة اتباع للعاطفة وإشباع لهوى النفس وحفظ لمكانتهم بين العرب كما يزعمون، والنبيﷺ بحكمته أعطاهم ذلك وأخذ منهم أكثر بكثير في باقي الشروط، فقد خلو بينه وبين دعوة العرب والناس كافة من حيث لا يعلموا؛ وهذا الهدف الأسمى الذي بعثه الله سبحانه به فهو رسول الله للناس كافة، فهذا الشرط وحده يعد مكسباً كبيراً حققه النبيﷺ من ذلك الصلح،

والمتتبع لما جرى من مفاوضات قبل إبرام الصلح يرى طول نفس النبيﷺ وصبره، فقد أرسلوا له أكثر من شخص ليحاوره، ويثنيه عن عزمه ويهول له الأمر؛ إلا أن النبيﷺ أراهم من الصبر والجلد والصلابة في الموقف، ما عكس الأمر عليهم وجعلهم يطلبون الصلح ويتنازلون عن كثير مما أرادوا، بل ويسمحون للنبيﷺ وأصحابه في دخول مكة والطواف بالبيت، وكسب النبيﷺ كثيراً من عقد هذا الصلح فمحاورة قريش للنبيﷺ تعد اعترافاً به وبراسلته ضمنياً وإن لم تكن تصريحاً، فقريش كانت قبلة العرب وذات مكانة كبيرة في نفوسهم، فعندما تحاورت مع النبيﷺ تغيرت نظرت القبائل للنبيﷺ ودعوته، بل رفعت الحرج عن القبائل التي كانت تؤيد النبيﷺ في السر وأصبح أمر الدخول في عقد النبيﷺ لأي قبيلة من قبائل العرب مضموناً في بنود الصلح، فكان من نتائج الصلح بعد ذلك النصر للنبيﷺ وأصحابه، ومما يجدر ذكره في التمسك بالثوابت أن النبيﷺ لم يتنازل عن شيء مما طلب منهم، حتى توالت عليه الرسل وعددهم خمسة رسل من قريش، وبعد ما شاهدوا من ثباته ﷺ وأصحابه رضخوا للصلح وطلبوه.

7- **فهم حالة وفد المصالحة واختيار الشخصية القيادية للمحاورة:** هذا ضابط في اختيار من يرسل ممثلاً في إبرام المعاهدات والمصالحات، ليكون على دراية تامة بما يترتب على المعاهدات من نتائج وتبعات وبأحوال المفاوضين وما يؤثر فيهم، يتجلى هذا واضحاً في فعل النبيﷺ تجاه مبعوث قريش للمفاوضة ففي المرة الثالثة أرسلت قريش الحليس بن علقمة الكناني ليفاوض النبيﷺ فلما أقبل قال لهم النبيﷺ: هذا من قوم يعظمون الشعائر فابعثوا أمامه البدن كي يراها، وفعلاً نجح هذا الأمر ورجع لقريش بغير الذي أرادوا، فقال لأصحابه: "رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت" فهكذا حكمة النبيﷺ ومعرفته بأحوال الناس جعلته يظهر له من الأمر ما يجعله يقف في صف النبيﷺ مدافعاً عنه أمام قريش، فأول ما رأى البدن قال: "سبحان الله!!! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت"[24]، وهذا من الحكمة البالغة التي يجب أن يتحلى بها من يكون مفاوضاً عن المسلمين، وفي المرة التي أرسلوا فيها سهيل بن عمرو عرف النبيﷺ أن قريشاً مالت للصلح لمعرفته بمبعوثهم، فعندما رأى سهيل قال لأصحابه: «لقد سهل لكم من أمركم[25]» ونستنتج مما سبق أن فهم وعناية المفاوض بأحوال الناس أمر هام غاية الأهمية، له

الأثر البالغ في النتائج؛ فبه يعلم ما يريده الخصم من سلم أو حرب، وبه أيضاً تستطيع كسب ما تريد عندما تظهر له الأمر بصورة حقيقية واضحة مبرزاً له ما يرغب فيه وما يهتم به.

8- **الشروط العادلة والنية الصادقة ضمان لاستمرار الصلح ونجاحه:** ينبغي لمن يتولى إبرام عقود الصلح أن يراعي مصلحة الطرفين، فكل طرف له من الصلح غرض وفائدة، وإذا أحسن المصالح اختيار ما ينفعه كانت له الفائدة الكبرى والمصلحة العليا، كما حدث في صلح الحديبية فالنبيﷺ أعطاهم بعض ما أرادوا إرضاء لكبريائهم، فلم يكن اختيار الشروط من قبل مشركي قريش عن دراسة؛ بل كانوا في وضع مجبرين على القبول بالصلح؛ لأنهم تضرروا فيما سبق من مواجهات وكانوا يخشون مواجهة أخرى، نرى هذا واضحاً من إصرارهم على عدم دخول مكة ذاك العام على أن يدخلوها في العام القادم، إذا نظرنا ملياً في هذا الشرط هو كما قالت قريش لمبعوثها للصلح سهيل ابن عمرو: ائت محمداً وصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبداً[26]، نرى بوضوح أن النبيﷺ كان يركز فيما له وزن ونفع على المدى الطويل، ولم يكن ينظر النظرة القاصرة التي وزنت بها قريش الموقف، فكان الغرض من هذا المسير دخول مكة، وقد ضمنه النبيﷺ من خلال بنود ذلك الصلح، مع كف أذى كفار قريش عنه والتخلية بينه وبين الناس يدعوهم للإسلام مكسب كبير للمسلمين، أما النية الصادقة تمثلت في موافقة النبيﷺ على بعض ما طلبوا منه، عندما طلب منه سهيل عدم كتابة "الرحمن الرحيم" في البسملة، وأيضا عدم كتابة رسول الله عقب ذكر اسم النبي ﷺ، وذلك عند الشروع في كتابة بنود الصلح قال النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم»، قال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم» ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله، وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله» – قال الزهري: وذلك لقوله: «لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»[27]، فقد وافقهمﷺ على بعض ما طلبوا لرغبته في مصالحتهم وأخذهم باللين دون الحرب، وكان له ذلك فقد دخلت قريش في دين الله يوم الفتح، والنبيﷺ من أول أمره قال: «والذي نفسي

بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»[28]؛ يدل هذا على الرغبة في الصلح العادل، وإذا نظرنا في هذه الأشياء التي أصر عليها سهيل ووافقه ﷺ عليها، هل هي شروط مجحفة للمسلمين الجواب: لا؛ لأنه في الحقيقة لا تنافي بين كلمة "بسم الله الرحمن الرحيم" وكلمة "بسمك اللهم" في الكلمتين تعظيم لله سبحانه وذكر له في أول الكلام، وحتى نسبة النبي ﷺ لأبيه دون كتابة "رسول الله" أيضاً لا تنافي اتصافه ﷺ بالرسالة، ومثل هذه الأمور الحكمة هي في تعامل النبي معهم فموافقتهم في مثلها لا ضير أمام المصلحة المرجو تحصيلها بالصلح معهم، والمفسدة فيما لو طلبوا ذكر آلهتهم التي يعبدونها من دون الواحد الأحد ، إذاً الدرس المستفاد من هذا هو عدم التمسك بالظاهر في كل شيء، ولكن ينبغي النظر للمعنى متى كان المعنى صحيحاً أو غير مناف للحق، لا بأس في تغيير لفظ أو بند في المصالحة مع عدم التفريط في الثوابت وهذا ما فعله النبي ﷺ.

الخاتمة

أولاً النتائج:

بعد هذه الجولة القصيرة في وقائع من السيرة النبوية العطرة، يستنتج الباحث بعض النتائج فيما يخص التعامل مع غير المسلمين.

أ- التحالف والتصالح والتعاهد مع غير المسلمين جائز وفق شروط وضوابط تحكمه.

- أن لا يكون ضد المسلمين.
- أن يكون مع دول مسالمة وليست محاربة.
- أن تكون فيه المصلحة ظاهرة.
- إن يكون بقصد التعايش وحفظ حق الجوار.

ب- استعان النبيﷺ في بعض الأمور العسكرية ضد المشركين بغير المسلمين للحاجة والضرورة.

ثانياً التوصيات:

يوصي الباحث بتكثيف وتوسيع الدراسة في هذا الموضوع دراسة نابعة من القرآن والسنة، في أحوال التعامل مع غير المسلمين في جميع المجالات ليستبين الجائز منها والممنوع في الإسلام، كما

ينبغي دراستها من الجانب العقدي والفقهي، دراسة موسعة تعرض فيها الأدلة والأقوال وتناقش وفق المصالح والمقاصد الشرعية، فالحاجة ماسة لدراسة هذه القضية دراسة شاملة وهذه الورقة لا تفي بها فهي دراسة مختصرة نظراً لضيق الوقت وطبيعة الأوراق العلمية في المؤتمرات من حيث الكم.

الهوامش

[1] البخاري، محمد بن إسماعيل. 1422 هـ، صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، دار طوق النجاة، حديث رقم (3231) ج4 ص 115.

[2]– القرآن، سورة آل عمران آية 28.

[3]– القرآن، سورة المائدة آية 51.

[4]– القرآن، سورة المائدة آية 51.

[5] –، ابن عاشور، محمد الطاهر. 1984 هـ، التحرير والتنوير الدار التونسية للنشر – تونس، ج6 ص229.

[6] – الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. 1420 هـ – 2000 م، جامع البيان في تأويل القرآن (تحقيق): أحمد محمد شاكر
بيروت: مؤسسة الرسالة. ص10 ص398.

[7] –والخلاف حاصل في أهل البغي من المسلمين هل يجوز التحالف مع الكفار لردعهم، والمسألة على قولين عدم جواز الإستعانة بغير المسلمين على قتال أهل البغي من المسلمين والقول الثاني جواز الاستعانة بهم، ذكر القولين ابن المنذر في الإشراف على مذاهب العلماء، تحقيق: صغير أحمد الأنصاري أبو حماد مكتبة مكة الثقافية، رأس الخيمة – الإمارات العربية المتحدة، 1425هـ – 2004 م، ج8 ص231.

[8] – الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل. 1421 هـ – 2001 م، المسند، (تحقيق): شعيب الأرنؤوط – وآخرون، مؤسسة الرسالة، ج 24 ص 606. والسِّجِسْتاني، أبو داود سليمان بن الأشعث. 1430 هـ – 2009 م، سنن أبي داود، (تحقيق): شعَيب الأرنؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ج5 ص 414. حكم عليه المحقق بأنه حديث حسن، له عدة طرق أخرى.

[9] –النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن. صحيح مسلم، (تحقيق): محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر، حديث رقم (1817) ج3 ص 1450.

10- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، دار ابن حزم، (ص: 946)، ولمعرفة تفاصيل المذاهب الفقهية ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتيـة، (من 1404 - 1427 هـ)، الكويت: وزارة الأوقاف والشئون الإسلاميـة، ج4 ص 18.

11 -الشيباني، المسند، ج2 ص 300. اسناده صحيح.

12 -قصة صفوان ذكرها الذهبي بتفصيلها، الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد. 1405 هـ / 1985 م، سير أعلام النبلاء (تحقيق) : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ج2 ص 565.

13 - وردت مقتطفات هذه المعاهدة في كثير من كتب السنة، ووردت بنصها في كتب السيرة وهي بكاملها عن ابن إسحاق عند ابن كثير وغيره، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. 1424هـ / 2003م، البداية والنهاية، (تحقيق): عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ج4 ص556.

14 - الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي. 1989/1409، المغازي، (تحقيق): مارسدن جونس، بيروت: دار الأعلمي، الطبعة: الثالثة، ج2 ص 634.

15 -ابن سيد الناس، محمد بن محمد اليعمري الربعي. 1993/1414، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، (تعليق): إبراهيم محمد رمضان، بيروت: دار القلم، ج2 ص 328.

16 -أي استراحوا وكثروا. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. 1414 هـ، لسان العرب، بيروت: دار صادر، الطبعة: الثالثة، ج12 ص 106.

17 - لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتي أي حتى أموت، والسالفة هي صفحة العنق وكنى بانفرادها عن الموت لأنها لا تنفرد عما يليها إلا به. ابن منظور، لسان العرب ج3 ص 333.

18 - البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم (2731) ج3 ص193.

19 -ابن كثير، البداية والنهاية، ج6 ص 211-212.

20 - وزير الخارجية البريطانية. رشدي، راسم. 1953، طرابلس الغرب في الماضي والحاضر، طرابلس ليبيا، ص 147.

21 - وزير الخارجية الإيطالية. المصدر السابق، ص 148.

22 – الموسوعة الحرة ويكيبيديا، رابط:
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B4%D8%B1%D9%88%D8%B9_%D8%A8%D9%8A%D9%81%D9%86_%D8%B3%D9%81%D9%88%D8%B1%D8%B2%D8%A7#cite_note-1

23 – البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، (3/ 195)

24 – الحديث السابق.

25 – ابن كثير، البداية والنهاية، ج6 ص216.

26 –صحيح البخاري سبق تخريجه.

27 –صحيح البخاري سبق تخريجه.

28 – العيد، سليمان بن قاسم. 1425 هـ، فقه الدعوة في صلح الحديبية، مجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، المجلد 19 العدد 39، ص 131.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن المنذر، 1425هـ – 2004 م، الإشراف على مذاهب العلماء، (تحقيق): صغير أحمد الأنصاري أبو حماد مكتبة مكة الثقافية، رأس الخيمة – الإمارات العربية المتحدة،

ابن سيد الناس، محمد بن محمد اليعمري الربعي. 1993/1414، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، (تعليق): إبراهيم محمد رمضان، بيروت: دار القلم.

ابـن عاشور، محمـد الطاهر. 1984 هـ، التحرير والتنوير، تونس: الـدار التونسيـة للنشر .

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. 1424هـ / 2003م، البداية والنهاية، (تحقيق): عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. 1414 هـ، لسان العرب، بيروت: دار صادر، الطبعة: الثالثة.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. 1422هـ، صحيح البخاري، (تحقيق): محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة.

د م. الموسوعة الفقهية الكويتية، (من 1404 – 1427 هـ)، الكويت: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد. 1405 هـ / 1985 م، سير أعلام النبلاء (تحقيق): مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة.

رشدي، راسم. 1953، طرابلس الغرب في الماضي والحاضر، طرابلس ليبيا.

السِّجِسْتاني، أبو داود سليمان بن الأشعث. 1430 هـ – 2009 م، سنن أبي داود، (تحقيق): شعَيب الأرنؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية.

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، دار ابن حزم.

الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل. 1421 هـ – 2001 م، المسند، (تحقيق): شعيب الأرنؤوط – وآخرون، مؤسسة الرسالة.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. 1420 هـ – 2000 م، جامع البيان في تأويل القرآن (تحقيق): أحمد محمد شاكر بيروت: مؤسسة الرسالة.

العيد، سليمان بن قاسم. 1425 هـ، فقه الدعوة في صلح الحديبية، مجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، المجلد 19 العدد 39.

النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن. صحيح مسلم، (تحقيق): محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي. 1989/1409، المغازي، (تحقيق): مارسدن جونس، بيروت: دار الأعلمي، الطبعة: الثالثة.